مشكلة الأديب والدولة

بقلم عبد الحسين حسن

في القرن الرابع قبل الميلاد ، قرر أفلاطون نفي الشعراء والفنانين من مدينته الفاضلة ، حين لا يساعدون على نشر الافكار التي يريد ان يربي الشباب عليها ويطبعهم بها، ولم ينس أن يشيع هؤلاء الشعراء وينفيهم بلا ضجة وبدون احتفال لائق ، فذكر أننا نتوجه اليهم ونضع على رؤوسهم اكاليلا ونشيعهم الى حدود المدينة وننفيهم منها ونحن نترنم بمديحهم ، فقد كفينا شرهم ، وأمنا خطرهم .

وبذلك لمس أفلاطون مشكلة تأثير الادب والفن عموما في المجتمع وخطورته بالنسبة لمهندسي البشر والمجتمعات ورجال السياسة ، وطرح حلا للمشكلة لجأ اليه دائما أصحاب التنظيم الشمولي أو الكلي للمجتمع ، وهو ضرورة السيطرة على الفكر والادب باعتباره سلاحا خطيرا في تشكيل عقليات البشر وسياستهم ، ووسيلة أساسية من وسائل السيطرة على المجتمع والضبط الاجتماعي أو باعتبار وقاية النظام الاجتماعي من بعض ألوان الفن التي تعمل على تقويض أركان المجتمع .

وقد اتخذت المسألة دائما صورا متنوعة من الصراع بين السلطة والفكر ، بين التقييد والحرية ، بين الامتلاء والرغبة في الانطلاق .. وقصة التقدم الانساني لا تخرج عن أن تكون ملحمة من المعارك بين القوى الحاكمة التي ترغب في استقرار الاحوال ودوامها ، وبين المفكرين المتطلعين الى صور وأشكال من الحياة جديدة تغاير المألوف وتريد تشكيل الحياة على نحو آخر ، أو تعرض الحقائق الجديدة فقط ، وحين يتأزم هذا الصراع ينفجر في صورة ثورة تقدمية ، تنقلب هي الاخرى بعد فترة طالت أم قصرت الى قوة راغبة في استقرار الوضع الجديد ودوامه على النحو الذي تريده وتصارع القوى الاخرى التي تبرز بعد فترة تنادي بأفكار وآراء جديدة مغايرة ... وهكذا سار خط التقدم البشري نزاعا بين قوى تريد السكون وقوى تريد التحرك .

ويصاحب هذه الحركة الانسانية القديمة الجديدة أبدا نوعان من الادب أو الفكر ، نوع يدعم الوضع القائم ويدعو له ، ويمجد ما هو كائن ويتحرك في نطاقه وفي حدود آفاقه وينال الثمن ، ويبرز في أعياد الجماعة واحتفالاتها ، وهو فكر يساير عصره ويجاري وقته ويتغنى به ويخدم لحظته ، وهذا النوع يمكن تسميته بأدب الدعاية ، وهو « وقتي » بطبيعته سريع الزوال ، وخير ما في هذا النوع من الادب ، من الناحية الاجتماعية ، ما ساعد على تثبيت تضامن الجماعة وتماسكها . والنوع الاخر من الفكر والفن هو الذي يتطلع دائما الى المستقبل، الى الخيوط الواهنة من بين الحاضر فيلتقطها ويشدها ليبرزها ويوضحها فتلقى استجابة ، تكون رادعة كابتة من جانب السلطات الحاكمة وترحيبا من جانب طليعة المجتمع المفكرة التي تقفز دائما لتكون امام المجتمع في تقدمه . ويغلب على هذا النوع من الادب ان يكون باقيا خالدا ، لانه انساني بطبيعته يتابع حركة المصير الانساني، ولذا يحظى بالتجاوب الانساني على مر العصور ويكتسب صفة الخلود النسبي والبقاء .

وتلك القضية التي اثارها افلاطون ليست جديدة على أي مفكر أو أديب لأنها قضيته دائما ، وهو يجدها تتردد في ردهات التاريخ بأصداء متفاوتة الضجة، سواء في تاريخ الكنيسة أو العصور الوسطى أو العصر الحديث، وكذلك في التاريخ الاسلامي وخاصة في العصر العباسي. ومن عجب أن سقراط أستاذ أفلاطون قد قدم روحه شهادة على شجاعة الانسان في مواجهة هذه القضية . واليوم طرحت هذه القضية بشكل عالمي تحت الضوء الباهر، حين هاجم خروشوف الفن التجريدي عند افتتاحه معرضا للفنانين التشكيليين أول ديسمبر سنة ١٩٦٢، فقد استبشع الطابع العام الذي غلب على المعرض وهو الطابع التجريدي غير الواضح والذي لم يصور أفكارا تخدم قضية الشيوعية، فهاجم هذا الفن الحديث باعتباره سكرتيرا للحزب الشيوعي ، وليس باعتباره ناقدا فنيا ، واستعار التعبير القديم الساخر المشهور وأطلقه « ان هذه اللوحات لم ترسمها يدان بشريتان ، ولكنها مرسومة بذيل حمار ».

وبذلك اتخذت القضية صورة خبر مثير حين ألقى خروشوف بثقله كله في المعركة ، ونقلت وكالات الانباء تعليقه ، فالتفت اليها الرجل العادي دون ادراك لما وراءها من مشاكل فكرية ، وارتدت ثوب الخبر المثير ، ولكن كانت تلك فرصة المفكرين ليضيئوا جوانب هذه القضية أولا بل وليقيموا الادب السوفياتي الحديث في ظل النظام الشيوعي .

وبطبيعة الحال كان لا بد أن يحث طرح القضية على هذا النحو المثير بعض المفكرين العرب ، فيتناولوها بالدراسة ، فماذا كان الصدى في العالم العربي ؟

برز هنا اتجاهان: اتجاه اخباري اهتم بما في المعركة من طرافة وتسلية ، ونشرت بعض تعليقات خروشوف اللاذعة التي طيرتها وكالات الانباء في الصفحات الاولى من الصحف اليومية ، واهتم بعض الصحفيين بتتبع الجانب المسلي الفكه في المسألة بل واهتم بعضهم بمتابعة معركة الادب الجديد في روسيا ، وخاصة عندما يكون خروشوف طرفا فيها ، ولا يهم أن يتورط بعضهم في بعض الاخطاء سعيا وراء الطرافة وادعاء متابعة الاحداث مثل قول أحد الصحفيين : في هذا الاسبوع صدرت مذكرات ايليا اهرنبرج بعنوان « رجال وسنين وحياة » ! في مجلة أسبوعية صادرة بتاريخ ١٠ يوليه ١٩٦٣ بينما كانت قد نشرت ابتداء من أكثر من سنتين . وأما الاتجاه الاخر ، فهو الاتجاه الذي نحاول أن نعرض له نظرا لجديته وصدوره عن مفكرين يعنون بما يكتبون.

وقد كان أول صدى لتلك المعركة مقال للمرحوم الدكتور بشر فارس بمجلة « آخر ساعة » ، الذي دافع فيه عن الفن التجريدي وحاول أن يوضح لخروشوف جذور الفن التجريدي لدى رسامين روسيين أصلا، وكذلك مقال استعراضي للاستاذ أنيس منصور بجريدة « الاخبار » نقل فيه بعضا من أقوال خروشوف.

ويعنينا كمثال لهذا الصدى دراستان حول الموضوع، الاولى كتبها الاستاذ صلاح عبد الصبور بمجلة آخر ساعة الاسبوعية على ثلاثة أعداد (الاعداد ١٤٩٥ — ١٤٩٧ بتاريخ ١٩ يونيه — ٣ يوليه ١٩٦٣) بعنوان « التغييرات الخطيرة في الادب والفن في روسيا » ، والثانية دراسة كتبها الدكتور سهيل ادريس في العدد الماضي من « الاداب » (اكتوبر ١٩٦٣) ، بعنوان « أضواء على الادب السوفياتي الحديث » .

وقد ابتدأ الاستاذ صلاح عبد الصبور دراسته بأن الواقعية الاشتراكية في الادب تواجه تحديا ، يشغل دوائر الفكر في روسيا ، ورمز هذا التحدي هو الشاعر الشاب ايفتشنكو ، وعرض لرأي الحزب الشيوعي في ضرورة التزام الفنانين والكتاب لخط الحزب ، وأشار بشكل سريع الى المحنة التي عاشها الادب والفن في روسيا منذ أستولى البلشفيك على السلطة عام ١٩١٧ ، وخاصة في عهد ستالين الرهيب ، وقد كان انتحار الشاعر العبقري مایاکوفسكي أبلغ احتجاج على طغيان الارهاب الستاليني على الفن ، وكذلك انتحار الشاعرة انا اخماتوفا ، وقد كان خطاب خروشوف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي يومي ٢٤ و ٢٥ فبراير ١٩٥٦ ايذانا بانفراج الازمة.

وكصدى لهذا الخطاب كان هناك تياران مختلفان، تيار يناصر بشكل خفي مكبوت الستالينية ، وتيار المجددين ، الشبان خاصة ، وان ساندهم بعض الشيوخ مثل اهرنبرج. وظل التياران المتعارضان يعملان الى أن حدث تصادمهما بشكل سافر عند زيارة خروشوف لمعرض الفنانين التجريديين ، مما أتاح الفرصة للتيار الرجعي المستند الى حرفية النصوص الحزبية ذات القداسة الماركسية للامساك بممثلي التيار الجديد وتطويحهم في الهواء لتأديبهم ، وذلك عند اجتماع اللجنة المركزية للكتاب والفنانين الروس ، ولكن الجمهور فيما يقول الكاتب وراء هؤلاء الشبان ، فديوان ايفتشنكو بيع منه ١٠٠ ألف نسخة في ٤٨ ساعة ، وقد عرض الكاتب الشاعر أمثلة على الافكار الفنية الجديدة واهتم « بالشاعر الزوبعة » ايفتشنكو ، وذكر أن ملامح هذه المدرسة الجديدة هي الايمان بالفن واتصالهم بأدب أوروبا ومحاولتهم احياء تقاليد الشعر الروسي القديم ، وأن باسترناك رمز لشعرائها واهرنبرج رمز لقصاصيها من الجيل القديم . وأشار الكاتب الى أن هذا التفتح الجديد في الادب والفن انما هو نتيجة لرحلة ذوبان الجليد التي اجتازتها الروسيا بعد موت ستالين . ثم لخص الكاتب رواية «ذوبان الجليد» لاهرنبرج ، واعتبرها البداية المشرقة للقصة السوفياتية ، ولخص بعض القصص الاخرى التي تمثل هذا الاتجاه وكان الاوفق للكاتب بدل الاشارة الى الضجة القديمة التي أثيرت حول « ذوبان الجليد » أن يتناول هجوم خروشوف مؤخرا على مذكرات اهرنبرج حتى تتضح الصورة نوعا أمام القارىء .

وفي نهاية الدراسة تساءل الكاتب : ما هي المشكلة ؟ وأجاب ان المشكلة هي مشكلة الفنان والسلطات المشرفة على الفن ... و « الان ما هي ايحاءات المستقبل ؟ » ويجيب الكاتب « ان الصراع الان يدور بكل حدته بين المجددين والقدماء ... والدولة بأجهزتها العليا لا تتخذ موقفا ، انها تترك الفنانين ليواجه كل منهم الاخر ، ويغلب على ظني أن موقف خروشوف لم يكن موقفا صلبا متزمتا بقدر ما كان يبدو » ثم فسر الكاتب الموقف بأنه نتيجة لتوتر العلاقات بين روسيا والصين والتوجس من نشاط المعارضة الستالينية ، « ومن هنا فان الحرية الفنية والادبية هي الوجه الان للانفراج السياسي وهذا ما يجعل الحكم على مستقبل هذه الحركة الفنية مرتبطا بالظروف السياسية التي يجتازها العالم ، فان هدأت حدة الحرب الباردة ... فليس هناك من شك في أن الادب الروسي سيسترد شبابه » .

تلك هي النتائج التي انتهى اليها الكاتب الشاعر، ولكن كيف سوغ لنفسه أن يقول أن الدولة بأجهزتها العليا لا تتدخل ، فهل هناك أعلى من خروشوف ، وماذا كان يمكن أن يكون هجومه المقصود في خطابه الطويل غير العابر عند حديثه الى الكتاب والفنانين بعد ذلك ان لم يكن هو التدخل بعينه ، بل هو التدخل الفعال بشهادة الاعترافات بالاخطاء التي تبعت هذا الخطاب من جانب الكتاب الشبان؟

ويبدو أن الكاتب الشاعر من فرط اعجابه بالشاعر «الزوبعة» ايفتشنكو صوره كمتمرد صلب ، حافظ على كرامته وكرامة فنه ، ولم يشر الى تراجعه عن الكثير مما قال ومهاجمته لمذكراته المسماة « سيرة ذاتية لانسان ناضج قبل الاوان» واعترافه بأن فيها أشياء كثيرة سطحية وغير متواضعة ، وقد أوضح الدكتور سهيل ادريس جوانب هذه المسألة .

وقد انتهى الاستاذ عبد الصبور الى ان المسألة ببساطة ليست هجوما جديا وأن الدولة لا تعني ما تقول. ولم ينتبه الكاتب الى أن نقد خروشوف ، وهو رئيس الدولة ، في حد ذاته عمل كان يستحق أن يتكشف معناه ومضمونه فيغير النتيجة التي انتهى اليها برمتها.

والكاتب في تفاؤله الذي أنهى به مقاله لم يدرك أن النتيجة التي وصل اليها تتعارض مع بديهيات التنظيم الشيوعي للمجتمع ، فهو نظام عقيدي لا يسمح بداهة بنقد عقائده التي يرى أنها هي الحقيقة المطلقة . وبالرغم مما يقال عادة من أن الماركسية ليست مذهبا جامدا فهذا حق، ولكن تظل دائما هناك مجموعة من « الحكام » تحتكر لنفسها حق تفسير المذهب ، والذي يخرج على هذا التفسير يدمغ بالخيانة ، حتى وان كان هذا النوع من الخروج هو الصورة التي كانت سائدة قبلا ، فدائما هناك املاء وتوجيه ، وقد يطلب من الكتاب والفنانين أن يتقمصوا مجموعة من الافكار التي تقدم على انها رأي الحزب في هذه الآونة أو تلك ولا يجوز الخروج عليها . ولعل السر وراء الادب الجديد هو التغير الذي حدث في المجموعة التي سيطرت على الحزب ، بزعامة خروشوف فوجد نوع جديد من الادب والفكر ، ولكن بسرعة تداركت المجموعة المفسرة أو التي تقوم بالتنظير في الحزب، ضرورة رد ما رأته خروجا عن خط الحزب ... فليس الامر بالبساطة أو التفاؤل الذي تصوره الاستاذ صلاح عبد الصبور ، وليست القضية هي قضية ارخاء القبضة أو بسطها على الاتجاهات الجديدة، فلا جديد هناك ما لم يأت الجديد من فوق.

* * *

أما الدراسة الثانية التي تعنينا ، والتي كتبنا هذا المقال بمناسبتها في دراسة الدكتور سهيل ادريس بعنوان « أضواء على الادب السوفياتي الحديث » .

وليست هذه الدراسة صدى مباشرا لهذه المعركة، ولكنها نتيجة مباشرة لزيارة الكاتب الى الاتحاد السوفياتي في الشهر الماضي ... ولكن يبدو أن القضية قد شغلت الكاتب بشكل جدي حتى أنه ضحى أحيانا « بفضول زيارة معالم الحياة والاطلاع على الانجازات التي حققتها الاشتراكية » من أجل دراسة الوضع الادبي في الاتحاد السوفياتي ، وتجلى ذلك في مقالته .

وقد بدأ الكاتب بحثه باحساسه « بأننا مقصرون جدا » في الاطلاع على الادب السوفياتي الحديث ، وفي اطلاع القراء العرب عليه ، وجهد الكاتب في أن يكون موضوعيا باحثا عن الحقيقة ، وحذرا في الاخذ بجميع الآراء التي يسمعها ، وتناول في بحثه أربع قضايا رئيسية هي مذهب الواقعية الاشتراكية ثم النزعة الانسانية ثم الاديب السوفياتي والدولة ثم السوفيات والادب الاجنبي.

* * *

والخيط الرئيسي الذي يربط هذه الدراسة هو عناية الكاتب بمشكلة الحرية والسلطة واهتمامه بالجانب الانساني في الادب واحساسه النقدي بالمظاهر المختلفة للحد من الحرية أكثر من اهتمامه بالتعريف بالادب السوفياتي الحديث ، وفي الحقيقة ان تلك هي جوهر المشكلة ، وتلك هي القضية التي تستأثر باهتمام المفكرين في هذا العصر الذي ينزع نحو الشمولية والتوجيه والتخطيط ... عصر الانتاج بالجملة ، عصر أساطة صناعة الرأي الهائلة التي تستطيع أن تسيطر الدولة بواسطتها على عقول الناس وتوجهها كما تشاء.

* * *

وقد أشار الكاتب بشكل سريع الى مذهب الواقعية الاشتراكية وعلق عليه برأي موضوعي الى حد بعيد والى الظاهرة الحديثة في النقد السوفياتي ، وهي الاهتمام بالتيارات الادبية الاجنبية ودراستها رغم ما يشوب هذا الاهتمام من هجوم الا أنه متفتح أو على الاقل يتعرف على معظم التيارات الاجنبية . أما القضيتان اللتان استأثرتا باهتمام الكاتب فهما النزعة الانسانية والاديب والدولة، وقد فصل الكاتب حولهما الحديث وأورد العديد من النصوص التي توضح رأيه وبذلك أضاء هاتين القضيتين الى حد بعيد.

فقرر أولا نقد الغربيين للنزعة اللاشخصية في الادب الروسي ثم أورد رد النقاد السوفيات على هذا الاتهام وأشار الى بعض الاعمال التي توضح ما أورده من قضايا.

ويعلق الكاتب بعد عرضه لمظاهر النزعة الانسانية ولاقوال المدافعين عنها « ولا ريب في أن هذه النزعة منتشرة انتشارا كبيرا وعميقا في النتاج السوفياتي، ولا سيما في الاثار الكلاسيكية الكبرى أمثال مؤلفات جوركي وتشيخوف وتولستوي ودوستويفسكي . على أن الباحث الموضوعي يفتقد في النتاج السوفياتي المعاصر أمثال هذه الشوامخ التي لم يستطع الادباء المحدثون ان يدانوها أو يلحقوا بها » .

وتلك ملاحظة صادقة الى حد بعيد.

ثم تناول الكاتب موضوع الاديب السوفياتي والدولة، وهو صلب المشكلة . وأوضح بذكر النصوص الوافية اتجاه الدولة في الادب والفن ، واستعرض الاحداث التي حدثت مؤخرا في الميدان الادبي من تعليق خروشوف على معرض الرسامين وحملته على اهرنبرغ وافتشنكو واستحالة التعايش السلمي بين الايديولوجيتين الاشتراكية والرأسمالية . ولاول مرة ، نشرت بالعربية مقاطع طويلة وافية من خطاب خروشوف يوم ٨ مارس ١٩٦٣ ، أثناء اجتماع قادة الحزب والحكومة بممثلي الادب والفن، وخلص الكاتب الى اثبات أمرين :

أولا : ما زالت صرامة الخط الحزبي تقيد الادباء والفنانين السوفيات ، وذلك واضح من قول خروشوف « في قضايا الادب والفن ، تطلب اللجنة المركزية للحزب من الفنان المبدع الذي اكتسب اكبر الشهرة ومن الفنان المبتدىء الشاب تطبيق الخط الحزبي تطبيقا لا هوادة فيه».

وذلك يتعارض مع تفاؤل الباحث الاول ، ولكن الكاتب برهن على قضيته ولم يكتف بذكر مشاعره.

ثانيا : خطورة أن يقوم رئيس الدولة نفسه بتوجيه الانتقادات العنيفة الى الادباء ، مما أدى الى استعار نيران الحملة على الادب الجديد وارتداد معظم الادباء والفنانين « وتوبتهم واستغفارهم عن ذنوبهم » ورجوعهم الى الحزب. وأورد الكاتب صورة واضحة لما تم في مؤتمر الكتاب السوفيات الذي انعقد بعد خطاب خروشوف وما جرى فيه من طقوس التوبة ، والاعترافات التي اعترف بها خطاة الادب الجديد من الشبان وعلى رأسهم ايفتشنكو ، « أما نكراسوف فقد كان أحرص منه على كرامته فرفض ان يعترف بشيء وكانت النتيجة أنه فصل من الحزب الشيوعي » . ويعقب الكاتب على ذلك بأنه صحيح لم ينف هؤلاء « ولكن أليست هذه الطريقة في انتقاد الادباء من قبل رجال الدولة المسؤولين ... « تمثل » نوعا من الضغط المخيف ، ان لم نقل الارهاب ؟ أو ليس هذا شبيها بالمكارثية الاميركية ؟ وبالارهاب البوليس الذي يمارسه نظام « فرانكو » على الادباء والمفكرين الاسبان » . من هذا يحس القارىء أن الكاتب يدافع عن قضية الحرية بعنف وبرحابة أفق والدفاع عن حرية التعبير همه الشاغل .

وقد كشف الكاتب بدراسته عن خط الخطر الذي يتهدد الادباء والفنانين والمفكرين دائما من الدولة الشمولية العقيدية . وان ختم الكاتب مقالته باحساس بالتقصير في دراسة النتاج الادبي الضخم في تلك البلاد ، دراسة موضوعية عميقة ، وتمنى أن يتاح للادباء السوفيات حظ أكبر من الحرية للتعبير عن آرائهم .

عبد الجليل حسن

اطلبوا كتب دار الاداب

في المغرب

من

المركز الثقافي العربي

بالدار البيضاء ـ ٤٢ ـ ٤٤ الشارع الملكي بالاحباس

تلفون ٥١ ـ ٢٧٨